المقتطف

الجزء الثالث من السنة التاسعة. ك ١. ديسمبر ١٨٨٤

المال والعمل

قد يعثر الانسان على المال عفواً كمن يجد جوهرة بغير تعب ولا قصد او يصادف كنزاً مخفى في حقلهِ. وذلك نادرٌ لا يُقاس عليهِ. وقد يحصّل المال بالعمل والتعب وهو الاسلوب المعوّل عليهِ للكسب. وغاية اكثر العلوم والفنون تقليل الاتعاب وتعليم الناس كيفية كسب المال باقل شيء من المشقة ولهذا صُنعت الآلات البخارية ومدّت السكك الحديدية وأُنشئت المعامل والمدارس وهلمَّ جرًّا. واذا امعنّا النظر رأينا ان الناس لا يستطيعون الكسب في الوقت الحاضر ما لم توجد عندهم اسباب الكسب الثلاثة وهي الارض والعمل وراس المال. وسنوضح كلاًّ من هذه الاسباب ولو بالايجاز

السبب الاول الارض وهي تعمُّ اليابسة والمغمورة معاً يتصل بها من الهواء والمطر والنور والحرارة لانها مصدر الطعام والشراب واللباس والمعادن والحجارة الكريمة والحيوانات الداجنة والعقاقير الطبية ومواد الضوء والزينة ومصدر كل القوى الطبيعية كالقوة البخارية والكهربائية والعضلية والعصبية وكل ما يدعى مالاً فهي السبب الاول من اسباب المال ومصدر الاموال كلها.

السبب الثاني العمل. ان كل ما ذُكر من مواد الارض الطبيعية لا يُحسَب مالاً نافعاً ما لم يقترن بالعمل. فأحرارُ البقول التي تنمو في الارض من نفسها وتؤكل بلا طبخ ولا معالجة لا ينتفع بها الانسان ما لم يقتلعها من الارض. والاثمار البرية الصالحة للاكل لا ينتفع بها ايضاً ما لم يقتطفها من الاشجار. والطيور والوحوش والاسماك لا ينتفع بها ما لم يصدها من البر والبحر. والمعادن والحجارة الكريمة لا ينتفع بها ما لم يستخرجها من الارض. ولا يخفى ان اقتلاع البقول واقتطاف الاثمار واصطياد الحيوانات واستخراج المعادن اعمال يعملها الانسان ويضطرُّ اليها ولو عاش عيشة البرابرة ولا يحيا بدونها. فلا بدَّ من العمل للانتفاع بمواد الارض ولذلك جُعل سبباً من اسباب المال. وقيمة

الاموال تزيد وتنقص عند المتمدنين بالنسبة الى العمل الذي عملت به لا بالنسبة الى مادتها . فمن يملك قنطاراً من الحديد يملك غروشاً قليلة ولكن مَنْ يملك قنطاراً من الابر يملك الوفاً من الغروش لانهُ يملك العمل الذي عُمِل به الحديد ابراً

السبب الثالث راس المال ويراد به كل ما يستعمله الانسان من القوت والكسوة والادوات قبلما ينال من عمله ما يقوته ويكسوه . وهو سبب ضروري لتحصيل المال فان لم يكن للانسان طعام يقوته ولو مرة واحدة في اليوم سعى اولاً في الحصول عليه ولو لم يحصّل في نهاره الاّ ما يمسك رمقهُ . ولم يزل كثيرون من نوع الانسان ياكلون نباتات الارض ويصطادون حيواناتها كالبهائم ويسعى الواحد منهم يومهُ كلهُ ولا يحصّل كفافهُ الاّ بعد المشقة الشديدة . فهولاء لا راس مال عندهم الاّ ما استنبطوهُ من الادوات لاقتلاع الجذور واقتناص الحيوانات وما يتألفون به اليوم ليتقووا على السعي في طلب رزقهم في الغد ولكن الفريق الاكبر من بني البشر قد جاوزوا هذه الخطة واذّخروا راس مال ينفقون منهُ ويعتمدون عليهِ وقت العمل وفلاّحهم يتعب تعباً شديداً على فلح الارض وزرعها ويلتزم ان يلبث بضعة شهور يفتات ويكتسي بما عندهُ من المال قبلما يستغلُّ زرعهُ وينتفع به ولكنهُ يجد الغلة توازي التعب وتزيد عليهِ . واذا كان راس مالهِ كثيراً استغنى عن الغلة واحتكرها الى وقت ارتفاع الاسعار فباعها بثمن غالٍ وحصّل ما لا يحصلهُ المتوحش بمضاعفة التعب وقس على ذلك بقية اعمال المتمدنين . ولا يخفى ان السببين الاولين اي الارض والعمل ضروريان لتحصيل المال اذ لا يمكن الحصول عليهِ بدونهما واما الثالث اي راس المال فغير ضروري ولكنهُ لازم جدًّا لتحصيل الكثير من المال بالقليل من التعب وسيأتي الكلام عليهِ وعلى العمل في فصل آخر

ثم اذا دققنا النظر في السببين الاولين اي الارض والعمل رأينا ان الثروة تتوقف على الثاني منهما اكثر مما تتوقف على الاوّل لان الارض الواحدة قد يعيش اهلها في اليسر والرخاء ويتدفق عليهم الثروة حتى تفيض على ما حولهم من البلدان وقد يعيشون في العسر والضنك ولا يفيض عنهم شيء من سنة الى سنة . والامثلة ذلك كثيرة جدًّا اقربها بلادنا هذه فان اهاليها الآن في ضنك شديد ولم يكونوا كذلك منذ اثني سنة مع انهم كانوا اكثر عدداً . والبلاد لم تتغيّر ولكن تغيّر الناس وتغيرت اعمالهم . وكذلك بلاد اسبانيا فانها كانت ايام استيلاء العرب عليها جنة تتدفق بالخيرات ثم ابتاعت اموال اميركا وهي الآن اقل ثروة منها في ايام العرب مع انها لم تزل في طيبة هوائها وجودة تربتها وكثرة معادنها . واهاليها الاسبانيون اقوياء البنية اصحاء الاجسام لا يهملون الاعمال . ولكن لا تحصل الفائدة الكبرى من العمل ما لم يستوفِ ثلاثة شروط وهي ان يُعمل في انسب الازمنة واصلح الامكنة واجود الاساليب . وكل بلاد عمل اهاليها بموجب هذه الشروط الثلاثة

وكانت عندهم اسباب المال الثلاثة المذكورة آنفًا صارت في مقدمة البلدان ثروةً وعمارةً . وها نحن نشرح كلاً من هذه الشروط شرحًا موجزًا

الشرط الاوّل مناسبة الزمان . من المعلوم ان الازمنة لا تناسب كلها للعمل الواحد على حدٍّ سوى . فالفلاح قد علمتهُ التجاربُ ان يفلح الارض في الوقت الانسب لفلحها ويزرعها في الوقت الانسب لزرعها وقد علمتهُ ايضًا ان لزرع هذا النوع من الحبوب وقتًا ولزرع ذاك وقتًا آخر . فان خالف بينها او لم يجرِ اعماله في اوقاتها المناسبة لم يستفد منها الفائدة الكبرى . والتاجر قد علمهُ الاختبار ان يجلب الاقمشة الصوفية في الشتاء والقطنية في الصيف . وهذا وان ظهر انهُ واضح لا يقبل زيادة ايضاح الّا ان الاعمال كثيرة واختبار الانسان الواحد لا يكفيهِ فلا بدَّ لهُ من الاعتماد على اختبار غيرهِ من العمال ولاسيما الذين ينقطعون الى البحث في طبائع الامور ولولا ذلك لافلح الناس كلهم على حدٍّ سوى ولكنهم يتفاوتون كثيرًا في إحكام الاعمال في اوقاتها فلا تاتي اعمالهم بنتائج متساوية ولا يفلحون كلهم

الشرط الثاني مناسبة المكان . وهذا الشرط ظاهر ايضًا في احوال كثيرة فاننا لم نرَ احدًا يزرع قمحًا على الصخر او يصطاد سمكًا من الرمل ولكنهُ غير ظاهر في احوال أُخرى بل كثيرًا ما نرى الناس يحاولون نقضهُ فيرجعون بخفي حُنين . مثال ذلك ان الارزّ يجود في وادي النيل اكثر ما يجود في اراضي سورية والتبغ يجود في اراضي سورية اكثر ما يجود في وادي النيل فلا يحسن زرع الارزّ في سورية والتبغ في مصر . والحرير كثير في سورية والحديد قليل فيها او هو كثير في الارض ولكن استعمالهُ متعذّر لقلة الوقود ولصعوبة النقل ومع ذلك لم تنشأ في بيروت شركة لنسج الحرير بل انشئت فيها شركة لسبك الحديد وهذا عمل وُضع في غير محلهِ وكانت عاقبتهُ انهُ ذهب ادراج الرياح وضاعت الاموال التي بُذلت فيهِ . واذا لم يكن في نواحي بيروت تراب صالح لعمل القرميد فالعمل الذي أُقيم فيها منذ مدة لعملهِ قد وُضع في غير محلهِ ولا فائدة منهُ وكان الواجب على صاحبهِ ان يتاكد اولًا مناسبة المكان لانشاء هذا العمل من حيث وجود التراب والماء والوقود ويتاكّد ايضًا امكان بيع كل ما يصنعهُ في هذه البلاد او امكان نقلهِ الى بلاد أُخرى بحيث تكون نفقتهُ مثل نفقة قرميد الافرنج او اقل . ومَن تدبَّر هذا الموضوع جيدًا رأى ان اكثر الاعمال التي لم تنجح لم تكن موضوعة في محلها

وافضل اسلوب للنجاح وتكثير الثروة أن نقتصر كل بلاد على الاعمال التي يمكن ان نتمّ فيها باقل شيء من التعب وان تُطلق السبيل للتجار لكي ينقلوا ما يشاءون من حاصلات بلادهم ومصنوعاتها الى البلدان الاخرى ويجلبوا منها ما تحتاج اليهِ بلادهم من المصنوعات والحاصلات .

وهذا الموضوع واسع ايضاً وسنعود اليهِ في فرصةٍ أُخرى

الشرط الثالث حسن الاسلوب . لا بدَّ لكل عامل من اتقان اسلوب العمل الذي يعمل بهِ حتى لا يذهب شيءٌ من تعبهِ سدًى . وقد يمكن ان يُعمَل العملُ الواحد على أساليب مختلفة ولا بدَّ من ان يكون بعض هذه الاساليب افضل من البعض الآخر فيجب ان يكون العامل عالمًا بحقيقة العمل حتى يختار الاسلوب الافضل ويتخلَّص من التعب . فيجب تعليم العملة مبادئَ العلوم الطبيعية والميكانيكية اللازمة لاتقان الاعمال واذا تعذَّر ذلك وجب ان يقام لهم مدبر عالم بدرجهم في اعمالهم . وعندنا ان هذا هو السبب الاكبر لتأخر الاعمال في بلادنا وقلة الثروة فيها فان اهاليها امسوا لقلة علمهم غير قادرين على مجاراة الافرنج في عمل من الاعمال . فكم من عاملٍ رأيناهُ يدأب نهارهُ وليلهُ على اختراع آلة تحرك من نفسها حركة دائمة وهو لو درس مبادئَ العلوم الطبيعية والميكانيكية لعلم ان ذلك ضرب من المحال وتخلَّص من اضاعة الوقت والتعب . وكم من مرة سمعنا ان الصباغين في بلادنا فسد نيلهم ولم يعد صالحًا لشيءٍ فخسروا مالهم وتعبهم وهم لو تعلموا المبادئَ الكيماوية المتعلقة بالصباغة لتخلصوا من هذه الخسائر كلها . أَوَيخفى على احدٍ من اهالي لبنان ان معدل غلة مد الحنطة لا تزيد على خمسة امداد في بقاع العزيز اخصب اراضي هذه البلاد وبالقرب منهُ اراضٍ لبعض الفرنسويين غلة المد فيها خمسون بل ستون مدًّا . هذا ولو اردنا ان نفصل افتقار الاعمال للعلم وتبين سبب تأخر كل عمل من اعمالنا لطال بنا المقال فوق الاحتمال

ثم ان الاعمال لا تُتقَن الاتقان التام ولا تُعمل باقل شيءٍ من النفقة ما لم يشترك فيها كثيرون ويعمل كلٌّ منهم جزءًا منها فقط ويقال لذلك تقسيم الاعمال وهو شرط لازم لاتقانها . والظاهر ان الناس انتقادوا اليهِ منذ القديم فترى في كل قرية من القرى الكبيرة خبَّازًا وقصَّابًا وحدادًا ونجَّارًا وكلاًّ منهم يقتصر على صناعتهِ بل ترى تقسيم الاعمال جاريًا في بيوت القرى الحقيرة ايضًا فالرجل يفلح والمرأة تطبخ وتغزل والصبيان يرعون المواشي والبنات يحلبنها . ويزداد تقسيم الاعمال بازدياد التمدن فترى في المعمل الواحد عَمَلَة كثيرين بين المدبر والكاتب والموقِّت والصنَّاع على اختلاف اعمالهم والحمالين والخدم . ولهذا التقسيم ست فوائد كبيرة

الاولى ازدياد مهارة الصنَّاع وهي لا تزيد الاَّ بالمزاولة الشديدة والتكرار حتى يصير العمل ملكة في العامل مثال ذلك ان الحداد الذي لم يمارس عمل المسامير لا يستطيع ان يعمل في اليوم اكثر من مئتي مسمار او ثلاث مئة ولكنهُ اذا مارس عملها يصير قادرًا ان يعمل ١٠٠٠ مسمار في اليوم . واذا تربى على ذلك من صغرهِ قدر ان يعمل ٢٣٠٠ مسمار في اليوم

الثانية عدم اضاعة الوقت بالانتقال من عمل الى آخر . فان كل عمل يحتاج من الادوات

والاستعداد ما لا يحتاجهُ غيرهُ فاذا عمل الانسان هذا العمل ثم تركهُ ليعمل عملاً آخر اضطرَّ ان يترك الادوات الاولى ويستعمل غيرها وقد يضيع في هذا الانتقال وقتاً قدر الوقت اللازم للعمل. وهذا ايضاً واضح وهو من اكبر الاسباب لرخص البضائع الافرنجية مع غلاء اجرة العملة عندهم

الثالثة تكرير النفع اي ان تقسيم الاعمال يمكّن كثيرين من الانتفاع بعمل انسان واحد في وقت واحد. فاذا اراد زيد ان يرسل كتاباً من بلدٍ الى آخر اضطرَّ ان ياخذهُ بنفسهِ او ان يستأجر رسولاً ويرسله معهُ ويدفع اجرتهُ كلها وكذا لو اراد عمرو ان يرسل كتاباً لاقتضى لهُ ان يستاجر رسولاً آخر ويدفع اجراً. فلو قام رجل بعمل حمل المكاتيب حرفة له لخدم اهل البلد كلهم وهو يخدم واحداً منهم. وعلى هذا المبدإ قد أُنشئت البرد وقلّت اجرة نقل المكاتيب والجرائد ونحوها حتى صارت اقل من القليل. وعلى هذا المبدإ ايضاً قام أُناس واتخذوا لهم حرفة انشاء الجرائد الاخبارية والعلمية فتكرَّر نفعهم الوفاً من المرات ولم يزد التعب والنفقة الاَّ قليلاً. وعلى هذا المبدإ ايضاً عمل الافرنج آلات كثيرة تصنع الوفاً من المتاع الواحد على نسق واحد كأنها تسبكها سبكاً في قالب واحد فرخصت مصنوعاتهم ولم يعد ممكناً لاحد ان يجاريهم ما لم يستخدم تلك الآلات

الرابعة اختيار العمل المناسب للشخص. فانهُ يحدث من تقسيم الاعمال ان القويّ يختار الحدادة حرفةً لهُ والضعيف الحياكة او الكتابة والحاذق عمل الساعات والجاهل تصليح السياجات (الوشم) وكل انسان يختار العمل الذي يربح منهُ اكثر مما يربح من غيرهِ من الاعمال. وكلما كثرت تقاسيم الاعمال سهل على كل احد ان يجد عملاً مناسباً لهُ فيهم فيهِ ويزيد ربحهُ منهُ

الخامسة اختيار المكان المناسب للعمل فان الاماكن المختلفة لا تناسب الاعمال كلها على حدٍّ سوى فاذا انقسمت الاعمال اختص بعضها بهذا المكان وبعضها بغيرهِ واشترك البشر كلهم في خدمة بعضهم بعضاً وتمكنت علاقاتهم بعضهم ببعض بواسطة التجارة. ولولا ذلك لبقيت كل امة بل كل قبيلة عائشة وحدها مستقلة عن غيرها من القبائل

السادسة التعاون على الاعمال. لان تقسيم الاعمال لا يبعد الصنّاع بعضهم عن بعض بل يقرّبهم حتى يعاون بعضهم بعضاً. فانظركم من الحيلة يتعاون على طبع الكتاب كسبك الحروف وجامعها وصانع المطبعة وصانع الورق وصانع الحبر والمؤلف والمحرّر والمصحح والطبّاع والخيّاط والمجلد وكثيرين غيرهم من مستخرجي المعادن وسابكيها وجامعي الخرق والمختبرين بها وصانعي الاصباغ وممازجيها. وهم كاجزاء آلةٍ واحدة يعمل كلٌّ منهم عملاً خاصاً ويتعاونون كلهم سويةً على اتمام العمل الاخير المقصود من اعمالهم كلها. واذا امعنّا النظر لم نرَ صناعة مستقلة بنفسها بل رأينا التعاون في الاعمال نتيجة لازمة عن تقسيمها. فالساعة الواحدة لا تُعمل حتى يتعاون عليها اكثر من اربعين عاملاً

وقطعة القطن لا تنسج حتى يتعاون عليها اكثر من مئة عامل . وكلما اكتُشف اكتشاف جديد زادت الصنائع عددًا وزاد تعاون الناس . فانهُ لم يمضِ على صناعة الفوتوغرافيا الاَّ مدة وجيزة ولكنها قد أوجدت ست عشرة حرفة جديدة وكلها لازمة لعمل كل صورة من صور الفوتوغرافيا . ويُسمى هذا النوع من التعاون بالتعاون المركَّب تمييزًا لهُ عن التعاون البسيط الذي يتعاون فيه كثيرون على عمل واحد في وقت واحد ويعملون فيهِ معًا كما اذا جذب كثيرون حبلاً واحدًا لرفع شيء ثقيل . والغالب ان الناس الذين يقتسمون العمل يتعاونون التعاون المركَّب والبسيط حسبما تدعو الحال فيعملون معًا اكثر من مجموع اعمال كلٍّ منهم

هذا من جهة المنافع الناتجة من تقسيم الاعمال ولكن لا يليق بنا ان نذكر المنافع ونترك المضار ولو كانت قليلة جدًّا بالنسبة الى المنافع . ومرجع هذه المضار كلها الى حصر قوى العمَّال ضمن حدود ضيقة . لان الانسان الذي يزاول عملاً واحدًا لا يقدر غالبًا ان يعمل غيرهُ فاذا كسد عملهُ او اضطر ان يتركهُ لسبب آخر لم يستطع غالبًا ان يعمل غيرهُ . وما من دواء لذلك الاَّ الصبر والاجتهاد على تعلم حرفة أخرى حالما تكسد الحرفة الاولى واطلاق الحرية لكل الناس ليحترفوا الحرف التي يريدونها فان الحاجة تدعوهم الى احتراف الحرف المناسبة لهم ولغيرهم . والزمان يصلح كل خطإٍ يقع في ميزان الاعمال

الديانة البرهميَّة

قال الامبراطور مكسيميليان قولاً جرى مجرى المثل وهو " Homo sum, humani nihil a me alienum puto." ومعناهُ "انني انسان فلا اعدُّ شيئًا ممَّا يختصُّ بالناس غريبًا عني" ولم يتحقَّق صدق هذا القول في زمان من الازمنة كما تحقق في الزمان الحاضر . فقد اوغل الاسكندر المكدوني في المشرق ودوَّخ القسم الاكبر من بلاد الهند ولم يخطر لهُ ولا لاحد من اليونان انهم يحاربون اعمامهم بل اخوتهم . وبقي هذا الامر مخفيًّا عن كل العلماء حتى قام لغويو هذا العصر ودرسوا اللغة السنسكريتية فوجدوا انها اصل اللغات الاوربية وان اهالي الهند واهالي اوربا من اصل واحد وقبيلة واحدة . وقد كتب المبشرون والسيَّاح الكتب الضخمة في اديان الشعوب الوثنية وصوَّروها صورة سمجة قبيحة نقشعرُّ منها الابدان وترتجف منها الفرائص حتى خلنا الفريق الاكبر من بني نوعنا شياطين بصور البشر او بشرًا بطباع البهائم . ولكنَّ الباحثين في اديان البشر